مابعد العصر الكارولنجي
من القرن التاسع
إلى القرن الثاني عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

ورد في نهاية فهرس لإحدى مكتبات الأديرة يرجع إلى عام ٨٣١ العبارة الآتية: « هذه إذن ذخائر الدير ، هي الثروة التي تغذي الروح بحلاوة الحياة الإلهية » [١]. ومثل هذا الإكبار لاقتناء الكتب يظهر فيما أورده أحد المؤرخين المتأخرين بعد أن وصف حريق إحدى المكتبات إذ قال:«لقد فني عدد لايحصى من الكتب فتركنا وقد سلمنا أسلحتنا الروحية»[٢]. ولعل أصدق تعبير عن هذا الشعور العبارة التي صيغت حوالي عام ١١٧٠م وهي:«إن الدير بدون خزانة كتب مثل القلعة بلا سلاح »[٣]. وكل اقتباس من تلك الاقتباسات يصلح أن يكون شعاراً لهذه الفترة من تاريخ المكتبات التي تمتد من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر، فقد كانت فترة تسودها مكتبات الكنائس والأديرة. وسوف نعرض لبعض هذه المؤسسات حتى نستطيع أن نخرج من وصف الملامح الفردية التي تبدو هنا وهناك بالنتائج الهامة التي نريد الوصول إليها .

وقد رأينا في الفصل السابق كيف بدأت مكتبة فولدا بداية طيبة، على أن هذه المكتبة لم تبلغ أهميتها القصوى إلا بعد عام ٨٠٠م حين حكم رابانوس موروسRabanus Maurus مدينة فولدا أربعة عقود، فكان رئيس المدرسة أولا ثم رئيساً للابرشية كلها بعد ذلك. ويسمى موروس بحق مؤسس طريقة العصور الوسطى في التربية بألمانيا، إذ تابع عمل الكوينAlicun في أرض الفرنج الشرقية وتحت إشرافه أصبح المنسخ في فولدا عامراً بالحيوية والنشاط وعاد ذلك بفائدة خاصة على المكتبة، وتشهد عبارة رابانوس نفسه على غنى مجموعة المكتبة وتعدد جوانبها قال:«هناك تجد كل ماأرسله اللّه من السماء إلى الأرض لفائدة الإنسان من كتب مقدسة ومن حكمة دنيوية تجلت على الناس في العصور المختلفة»[١].

---

(١) Hae ergo divitieae claustrales, haesunt opulentiae Caslestis Vitae dulcedine animam sagi-nantes - from the catalogue of the monastery of st. Riquier, reprinted in E.Edwards Memories of libraries...297-301.

(٢) liq- . Inexplicabilis libranimcapia periit, nosque spiritualumnostri armorum inarmes re uit Claustrum sinc armorio quasicastrumsine armentario.

(٣) Geoffrey of st. Barbein Theasaurus no vus anecdotorum ed. F. martene and m. Durand. Paris, 1711. 1,511.

وعلى نحو ما كانت فولدا لمينفرانك mainudrankin ، وكانت كورفي Corvey لساكسونيا Sao-ny حيث كانت كوربى Corbie كبرى أبرشياتها وهي جالية تفرعت عن لوكسوي- تحتفظ بمنسخ ذي إنتاج خصب حتى نهاية القرن الثامن، وكان يعمل هناك حتى بداية القرن التاسع قريبان لشارلمان وعضوان في بلاطه هما أدلهارد Adelhary ووالا Wala وكذلك الباحث العظيم باسكاسيوس رادبيرتوس pashasius Radbertus وفي الحقيقة كان هذان القريبان أول من ترجم تقاليد الفرنجة إلى منطقة نهر وزرWeser وذلك في عام ٨٢٢م. وبفضل الأسرة الحاكمة في ساكسونيا نشطت كورفي بحيث أصبحت عاصمة الثقافة في المقاطعة، ومن المرجح أن أساس مكتبتها إنما جاء من مجموعات كوربي، ففي عام ٨٤٧م أهدى إليها أحد القساوسة «مجموعة كبيرة من الكتب»(magna capia libarum) وعلى الرغم من أن التقارير عن مجموعاتها النهائية غير متوفرة، فإننا نستطيع تقديرها عن طريق الاستقلال السياسي، فنحن نعلم أن ويدوكند Widukind كتب حولياته القيمة خلال القرن العاشر في كورفي، ونرجح أنه إنما استمد المصادر التي استعان بها في كتابته في مكتبة الأبرشية، وبعد ذلك بقرنين من الزمان نجد ويبالد wibald الصديق الحميم لكونراد الثالث Conrad 111 راهباً هناك. وتكشف مراسلاته عن رغبته الجامحة في إمداد المكتبة ببعض المخطوطات القيمة وخصوصا مؤلفات شيشرون.

وأخرج العصر الكارولنجي مكتبتين هامتين لديرين وذلك في شرق بلاد الفرنجة إحداهما في ويزنبرج weissenburg وطن الشاعر الحماسي المتدين أو تفريد Otfried والثانية في لورلLorch. ولم تبلغ أي من الأبرشيات في ذلك الوقت ما بلغته هاتان المكتبتان من تقدم وازدهار سريع ، فقد نمت مجموعات المخطوطات في لورك بدرجة عظيمة سواء في العدد أو القيمة أو حسن التنظيم بحيث فاقت كل ما عداها في الأبرشيات الأخرى.

ومن أبرشيات أسوابيا Swaboa يجب أن نذكر أبرشية سانت جال St. Gall فهي أحسن مثال على الثقافة الديرية في ألمانيا في الفترة ما بين عصر شارلمان وبداية القرن الحادي عشر، وكان بها مدرسة نموذجية تقلد تلاميذها كثير من المناصب الكهنوتية، ومن بين الباحثين والكتاب المبرزين الجامع نوتكر بالبولسNotker Balbulus مؤلف ملحمة Waltharius Ekkehard واللغوي نوتكر لابيو N. Labeo وأخيراً اكهارد الرابع Ekhard Iv مؤلف Casus S. Golli الذي يعطينا

---

(١) Quidquid ad arcedues cocli direxit in arbem in arben Scripturae sanctae per pia verba viris illic invenies, quidquid sapientia Mundi protulit in mundum to mporibus variis - "Hrabani Mauri Carmina xxiii: Gerhohum prestiberum" in Monu enta Germaniae historica. poetae latini medii aevi, il, 187.

صورة واضحة عن العصر الذهبي للدير. فقد بدأ المنسخ نشاطه حوالى منتصف القرن الثامن، وكان المؤسس الحقيقي للمكتبة هو القديس جريمالد Grimald(٨٤١ – ٨٧٢ بمساعدة خليفه هاردمت Hardmut ولقد ساعد كثير من النساخ والمتطوعين من أمثال الأسقف سالمون من كرنستا Bishop soloman of Constanie على تنميتها ، ولقد وقفنا على أسماء أمناء المكتبة ومن بينهم نذكر نوتكر بالبوليس المشار إليه آنفاً. كما وصلتنا معلومات موثوق بها عن المدى الكبير الذي بلغته مجموعاتها متمثلا في الفهارس التي بقيت، كما وصلنا أيضا تقويم يبدأ بالقرن التاسع، ويستمر في القرون التالية ويسجل لحياة القديسين وقراءاتهم اليومية في المكتبة، ولم يذكر العلماء شيئا كثيراً عن أبرشية Alsatian في موربا خ Murbach، كما ذكروا عن سانت جال، على الرغم من عثورنا على قائمة ترجع إلى منتصف القرن التاسع تمثل مقتنيات هذه المكتبة في ذلك الوقت، وكيف كانت هناك جهود بذلت لإنماء هذه المجموعات وتطويرها.

كان هناك مركز ثالث للحياة الدينية في أسوابيا هو ريشيناو Reichenau الذي كان يتبادل المخطوطات على نطاق واسع مع سانت غال المجاور، ولم يكن يتردد في إمداد موربا خ بالكتب، ومنذ إنشائه جد الرهبان في جمع الكتب له، ولكن عصره الذهبي لم يظهر إلا في حكم شارلمان، وكان رجنبرت Riginbert الذي يطلق عليه أعظم أمين مكتبة في زمانه يعمل هناك، وقام بنفسه بإنتا ج بعض النصوص لمؤلفين دينيين وعلمانيين ، وأشرف على قراءات الطلبة الجادين، وكان يجلب المخطوطات من الأماكن القريبة والبعيدة، من إيطاليا وغرب مملكة الفرنج (*) وقد ضمن فهارسه أعدادا من هذه الذخائر التي تجمعت، ففي أيامه بلغت مجموعات المكتبة مايربو على ٤٠٠مجلد، بحيث يمكن القول بأن مجموعاتها ضارعت المكتبات الديرية الأخرى التي سبق الحديث عنها، ولم يكن إنشاء هذه المكتبات بمحض الصدفة، فهذه المكتبات قد صممت على نسق مكتبة القصر الإمبراطوري وبمساعدته، وهي في مجموعها تمثل روح ألكوين وعلمه ومدرسته، ولقد ظلت روح البحث مرتفعة لفترة طويلة في رشينا ، وحتى نهاية القرن العاشر الميلادي حين بدأت بعد ذلك تخفت رويداً وتحول الصيت العظيم إلى مدرسة المصورين. وعلى الرغم من ذلك فإن الأديرة الأخرى وخاصة فولدا ضربت لنا أروع الأمثلة في فن صناعة الكتاب، وكان هذا في عهد الإمبراطور آتو OTTO العظيم ، وإلى مصوري رشينا أرسلت البعثات ليس فقط من الأمراء والأساقفة، ولكن أيضا من البلاط الإمبراطوري، وكذلك من لدن البابا في روما.

(*) كانت في ذلك الوقت مقاطعة ألمانية على نهر الراين، ولكنها الان موزعة بين بادن وبافريا وفير تمبرغ(م)

ومع بداية القرن الحادي عشر تصدت رجنز برج Regnesburg لقيادة التطوير الثقافي في ألمانيا ، ويمكننا أن نلاحظ التقدم العام في الأديرة البافارية خصوصاً بعد القضاء على الخطر الهنغاري في موقعة لشفيلد Lechfeld ، وكان القديس ولفجانع Wolfgang من رجنز برع أحد الشخصيات القائدة في حركة التطوير هذه، وإلى سانت أميرام .St. Emmeram استدعى رامولد Ramwold ليعمل على إحياء الأبرشية وخاصة عن طريق جمع الكتب فيها maxime in librarum Cultubus ولذلك نجد الفهرس الذي أعد لها تحت إشرافه يحتوي على ما يربو على الخمسمائة كتاب، ولم تمض عقود قليلة حتى نجد الخطاط العظيم أوتلو Othlo يعمل في سانت اميرام، وإن ترجمته الذاتية غير العادية لتعدد لنا سلاسل المخطوطات التي أخرجها والنماذج التي بقيت لنا من هذه المخطوطات لتدل على المكانة العظيمة التي احتلها بين معاصريه.

ومن رجنربرج أرسل جوزبرت Gozbert إلى دير تجرنسي Tegernsee ليكون راهباً، وكان عمله هناك يشبه عمل رامولد في سانت اميرام، وإن مراسلات ناظر مدرسته في فرموند Froumnd لتكشف لنا عن المصاعب التي تجشمها في سبيل الحصول على مخطوطات لنسخها لدير تجرنسي، وفي مقابل ذلك كان يعير بعض مخطوطات مكتبته لنسخها لنفس الغرض. وفي الأعوام التي تلت انخفضت سمعة الدير كمركز لإنتاج المخطوطات ، وإن الإمبراطور فردريك بربا روسا Fredrick Barbarossa كثيراً ما أظهر رغبة ملحة في الحصول على كتاب الصلوات وكتاب القداس مما أنتج في هذا الدير، وذلك لما اشتهر عن رهبان تجرنيس «كنساخ مهرة» boni scriptores . ويتضاعف حظنا من المعلومات عن منسخ ميشيلزبرج Michelsbergفي بامبرج Bamberg فقد خلف لنا الأمين بورخارد burchard(ت١٠٤٩م) نوعاً من التاريخ المكتوب لمجموعة الكتب التي كانت منوطة به ، فهو يسرد علينا الكتب التي وجدها هناك ثم الكتب التى أضيفت عن طريق الإهداء والشراء والنسخ ، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فيسرد علينا أسماء النساخين وتقسيم العمل فيما بينهم، ويبدو أن منسخ ميشيلز برج قد أنتج مخطوطات لأغراض التصدير. ويمكننا تقدير ما وصلت إليه الحياة العقلية من تقدم في تلك الأبرشية في هذا الوقت عن طريق التنوع الكبير فيما كان بها من كتب، وليس فقط عن طريق الحولية الشاملة لهذه الحقبة والتي انتظم صدورها هناك آنذاك.

وخلال هذه الفترة التي ندرسها لم تكن المكتبات معدومة في الكاتدرائيات في ألمانيا، ولكنها على العموم كانت تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية بعد مكتبات الأديرة. حقيقة أن الجهود الثقافية التي بذلها أتباع شارلمان قد أثرت على كلا النوعين من المكتبات :ففي ذلك الوقت قام كبير الأساقفة لوس Lullus من ماينزMainz وزميلاه هيلدبالد Hildbaldمن كولونيا Cologne، أرنو

Arnoمن سالسبورج Salzburg ببدايات طيبة للغاية في هذا الصدد، كما أن من جاء من بعدهم لم يهملوا هذه المجموعات. ولكن القديسين الألمان – كما بدا من تاريخهم – في الفترة من القرن العاشر إلى الثاني عشر كانوا يشتركون كلية في الشؤون السياسية إلى جانب واجباتهم الدينية. ومن هنا لم يكن لديهم متسع من الوقت لقيادة الحياة الفكرية وحل مشاكلها، ولم يكن يستثنى من ذلك سوى قديس واحد هو بيرنوارد من هيلدشيم Bernward of Hildeshim (ت١٠٢٢) الذي جعل من مسكنه مكاناً لدراسة الفنون والمعارف. كما أنه جمع على حد قول أمين مكتبته وكاتب ترجمته تانجمار Thangemar مكتبة كبيرة من كتب القديسين وكتب الفلاسفة Capiosam bibliothecam tam divinorum quam philosophi corum codicum. .

ولو أننا أردنا تصوير المكتبات في الدول الأخرى بنفس التفصيل الذي اتبعناه في المكتبات الألمانية، فإن هذا سوف يجرنا إلى تجميع التفاصيل الدقيقة دون الوصول إلى إطار واضح وسليم لطبيعة وتكوين المكتبات في ذلك الوقت. وذلك لأن ألمانيا في تلك الفترة كانت القوة الرائدة في اوروبا ليس فقط من الناحية السياسية بل أيضاً من الناحية الفكرية والثقافية. ولهذا سوف نكتفي بإعطاء بعض الأمثلة البارزة لنوضح كيف أن المكتبات في كل مكان – حتى ولو كانت بعيدة عن الحدود الألمانية – كانت على درجة من النضج لا بأس بها وخاصة حيثما وجدت أديرة تزخر بالحياة والنشاط.

ولنبدأ بالجنوب فنجد مصداق ما نقول مطبقاً على الأبرشية الأم في مونت كاسينو monte cassino، التي استطاعت في عهد القديس وسيد يريوس Disiderius أن تستعيد قوتها وازدهارها بعد طول انحلال وتأخر . ففي هذه الفترة بلغ الخط والتصوير في هذه الأبرشية أقصى درجات الكمال، كذلك أخذت عملية جمع المخطوطات الجديدة والقيمة تزداد يوماً بعد يوم على يد الباحثين والدارسين الذين أصبحوا مثالاً يحتذى حتى خارج الأبرشية وقد عاصر ذلك الوقت أيضاً القديس جيروم من بومبوز jerome of pomposal الذي لفت الأنظار إليه في شمال إيطاليا بالإصلاحات التي قام بها في أبرشيته وتزويد مكتبتها بعدد كبير من الكتب القيمة.

وابتداء من القرن العاشر فصاعداً تولت طائفة كلوني Order of Cluny توجيه الحياة الكنسية في فرنسا [١] ولقد جلب إليها مؤسسها أودو Odo مائة من المخطوطات وتولى أحد خلفائه من بعده، ويدعى ماجولوسMajolus الإشراف على الرهبان عند قيامهم بنسخها، وفي نهاية الفترة

(١) انظر joan Evans:Monastic life at Cluny, 910. 1157 London 1931. for France in general see lesne, OP . cit

التي ندرسها بلغ رصيد المكتبة ما يقرب من الستمائة مجلد، واقتنت الأديرة الأخرى التي قامت هذه الطائفة على إصلاحها مجموعات لا بأس بها من الكتب نذكر منها على سبيل المثال ديرفليري سيرلوار Fleury -- sur --Loire وإن القواعد التي وضعتها طائفة سانت فيكتور St fic-tor الباريسية لتستحق اهتمامنا وذلك لاشتمالها على قسم مستقل يعالج واجبات أمين المكتبة، وإن هذا الاهتمام الواضح بالكتب كان يغذيه باستمرار رغبة هذه الطائفة في البحث وحبها للعلم، وإن معهدهم ليعتبر بحق إحدى البنور التي نبتت منها جامعة باريس.

انتقلت روح النظام التي عرفت بها طائفة كلوني من فرنسا إلى انجلترا، ففي عهد وليم الفاتح تولى لانفرانكLanfranc كبير أساقفة كانتربري Canter bury حركة الإصلاح ، فقام على إحياء مكتبة كنيسة المسيح Christ Church ، وأصدر أوامره بتوزيع الكتب على الأديرة في فترات منتظمة ، وتشبع بهذه الروح أحد أقاربه وهو الراهب بول من دير سانت البانز St Albans فقام على تنظيم المنسخ هناك وخصص له دخلا منتظما وجلب إليه النساخ، وفي ذات الآن أمد المكتبة بهدايا عظيمة من الكتب القديمة، ومن ذلك الوقت حتى القرن الثاني عشر لقي المنسخ والمكتبة كل اهتمام من السلطات المسؤولة في الدير. وبهذا تجمعت أعداد كبيرة من المخطوطات مما ساعد على كتابة.التاريخ في سانت البانز في القرن الثالث عشر.

وكان مما يميز مكتبة العصور الوسطى عن مكتبة العصر القديم ومكتبة العصر الحديث على السواء ضآلة الموجود بها من الكتب فلم تكن فهارسها لتحوي أكثر من عدة مئات قليلة من المداخل (١). ومما تجدر ملاحظته في هذا المجال أنه ربما احتوى مجلد واحد على عدة كتب مختلفة، وكانت الموضوعات التي تمثلها هذه الكتب وهي عبارة عن الكتابات المسيحية والمخلفات القليلة من العصور القديمة بالإضافة إلى ما استحدث من مؤلفات دينية وعلمانية في الفترة ما بين القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر، مما يمكن جمعه حقيقة في عدد بسيط من المجلدات كهذه.

وإذا ما أسس دير جديد فإنه كان يتلقى نصيبه الأساسي من الكتب أو على الأقل القدر

---

(١) Is. Beddie "The Ancient Classcs in the Medieval Libraries Speculum, V, 1930, 3020.وكتابه

"Libraies in the 12 ceutury, their catalogues and Content" in Anniversary Essays in Medieval History oF students of Charles Homer Haskins. Boston 1929.

الضروري من كتب الطقوس الدينية، من الأبرشية الأم، ثم تأخذ مجموعته في النمو عن طريق الهدايا التي تأتي من مصادر متنوعة، من الدوائر الدينية وغير الدينية، وكانت هذه الهدايا نتيجة طبيعية لالتقاء المتبرعين عند الصلاة ، كما كان الرهبان الجدد والطلبة الذين يلتحقون بمدرسة الدير يقدمون هدايا أيضاً، كما كان الشراء مصدراً آخراً لتزويد الدير بالكتب، وإن كان ذلك يتم في أضيق نطاق نظراً لارتفاع أثمان المخطوطات بشكل غير عادي، فكثيراً ما نسمع بأن مساحات بأكملها من الأرض، أو مزارع للكروم مثلا قد دفعت ثمناً لبعض المخطوطات، ولهذا كان من الطبيعي تزويد الدير عن طريق الهدايا الخاصة وفرض ضرائب وعوائد تحصل لصالحه بانتظام.

لقد كان هناك تبادل حيوي للمخطوطات بين الهيئات الدينية المختلفة، ومما ساعد على ذلك سهولة تبادل النسخ المكررة، كما كان ذلك أداة للحصول على النصوص التي تستخدم كنماذج للنسخ ، ونلاحظ دائماً وفي كل مكان وجود علاقة وثيقة بين المكتبة والمنسخ، فليس من العسير علينا أن نثبت أن محتويات المكتبة ونموها إنما كانا يعتمدان أساساً على صناعة وإنتاج المنسخ، ولم يكن نشاط المنسخ مقتصراً على نسخ المخطوطات وتحليتها بالصور، بل تعداه إلى إعداد مواد وأدوات الكتابة من الرق إلى الأقلام إلى الحبر إلى الأصابع إلى الألواح وغيرها، وإن هذه الأعمال التي كان يقوم بها الرهبان لتكشف عن الدور الذي لعبته الأديرة في هذا الصدد، فقد كان الرهبان يقفون الأسابيع والسنوات في نسخ الكتب أملا في ثواب اللّه ، وهذا الثواب الذي غالباً ما تردد ذكره في مناسبات عديدة [١]

ولعل هذا يفسر لنا لماذا كان الرهبان يتفانون في الحفاظ على مخطوطاتهم كما كانوا يفعلون مع ذخائر الدير، فإلى جانب قيمتها المادية وأهميتها كأداة للبحث يأتي العامل الروحي في كونها تحمل الشهادة على رضا اللّه، كما كان الإخوة الرهبان يتناولونها في رفق واهتمام بالغين، ومن هنا أيضاً كانت المخطوطات تهدى بفخر إلى الدير وهي تحمل علامات تدل على اسم صاحبها، كما جرت محاولات لحمايتها من السرقة عن طريق كتابة لعنة الكتب المزعومة بداخلها، هذه التهديدات بالعقاب الزمني يمكن تتبع أصولها في القرون السابقة، وخلال الفترة التي ندرسها كانت هذه التهديدات تكتب أحياناً نثراًوأحياناً أخرى تكتب شعرا .

---

(١) بهذا الشأن انظر الفصل الجاد الممتع الذي كتبه Florence E. de Roover بعنوان "The scriporium " in j. W. thompson = the medieval library.

وتطورت أساليب المحافظة على هذه الذخائر ، فبدلا من لعنة الكتب هذه اتخذت تدابير لمنع السرقة عن طريق التنظيم الإداري للمكتبة. فوكلت هذه المهمة إلى حارس armarius أو أمين li-prarius ، وهو موظف بالأبرشية يقوم بمهمته الجديدة بجانب وظائف أخرى يقوم بها مثل وظيفة الترتيل في الكنيسة، كما كان غالباً ما يشرف على المنسخ أو على الأقل يسهم في الإشراف عليه، أما عن مدى واجباته المكتبية فإن ذلك كان يتوقف على حجم المجموعة المنوطة به رعايتها.

وفي القرون الأولى وكذا المتأخرة كانت المخطوطات والذخائر تحفظ معاً في مكان أمين مثل حجرة المقدسات أو أحد المعابد، كما كانت في بعض الأحيان تحفظ مع الأوراق الرسمية والمستندات الأرشيفية. وإذا كان موجود المكتبة من الكتب قليلاً فإنها كانت تحفظ في دولاب أو أكثر ، وكانت هذه الدواليب إما في داخل الجدران نفسها وإما موضوعة بحذاء الجدران كما رأينا في مكتبات العصور القديمة. أما إذا كان موجود الكتب كبيراً فإنها كانت تحتاج إلى أماكن خاصة، ولم تكن هذه الأماكن الخاصة معروفة في العصر الكارولنجي . ولكننا نصادف مايسمى بتصميم سانت غال المعماري وهو تصميم نموذجي لتخطيط دير كبير في ذلك الوقت . ففي ذلك التصميم تكون «المكتبة عبارة عن مبنى يشبه إلى حد كبير حجرةالمقدسات في الموقع والحجم وتوازي الجانب الشرقي من المشيخية Presbyter وتتكون من طابقين، الطابق الأسفل يجهز ليكون منسخا والطابق العلوي يعد ليكون مخزناً للكتب ». ونعرف أنه في وقت متأخر كان الرهبان البندكتيون Cisercians يعزلون الكتب في مكان قريب من حجرة الطعام. أما في دير تجرنسي فقد «وضعت المكتبة في الكنيسة الجديدة فوق البازلكا نفسها –super eandem basili-cam armaria locatur وغالبا ما كانت كتب الطقوس الدينية اللازمة للعبادة تعزل عن بقية الكتب. وغالباً ما كانت الكتب تقسم فيما بينها إلى مجموعة داخلية خاصة بأعضاء الدير وأخرى خارجية خاصة بالمدرسة الملحقة بالدير، كما نصادف نوعا من الفصل بين كتب المراجع وكتب الإعارة.

وكانت لوائح بعض الطوائف الدينية تشتمل على قواعد صارمة فيما يتعلق بإجراءات إعارة الكتب. ففي يوم محدد من أيام السنة يجتمع أعضاء الأبرشية وينادون على من استعار كتباً فيما مضى ثم يطالبون بردها . وتبدأ إجراءات إعارة الكتب للسنة الجديدة. كل هذه الإجراءات من استرداد وإعارة كانت تتم تحت إشراف أمين المكتبة الذي كان من مهمته أيضا الاحتفاظ بقوائم بالكتب المعارة هذا فيما يتعلق بإعارة الكتب لأعضاء الدير. ولكن لم تكن الإعارة مقصورة على هؤلاء فقط بل كانت الإعارة جائزة لأشخاص من الخارج أيضاً كما أوضحنا سالفاً، وكان

على المستعيرين خارجيا أن يقدموا إيصالاً أو رهناً ضماناً لرد ما استعاروه فنجد رجنبرت من ريشينا يطالب الأعضاء « بألايستعيروا أي كتاب خارج الأبرشية إلا بعد تقديم رهن أو على الأقل تعهد بأن يردوا إلى المكتبة ما استعاروه في حالة جيدة» (١) . وطالما أن مثل هذه الاحتياطات لم تحل دون إساءة استعمال الكتب ودون ضياع لبعضها فقد عدلت القواعد في نهاية الفترة التي ندرسها بحيث منعت الاستعارة الخارجية كلية.

وكان من واجبات أمين المكتبة القيام بتصنيف الكتب وجردها: ولقد كانت فهارس مكتبات الأديرة الكارولنجية الكبرى كما رأينا تشتمل على حقيقتين مهمتين: تشابه مجموعات الكتب في كل منها، وتوحيد التقسيم الموضوعي فنجد في البداية الكتابات المقدسة التي كتبها رجال الدين من آباء الكنيسة حتى القسس الجددmagistri moderni مرتبة حسب أسماء مؤلفيها ثم يلي بعد ذلك بقية الكتابات الدينية مما لا مؤلف له، يتبع ذلك الكتابات المتعلقة بأمور الدنيا بما في ذلك المؤلفات الوثنية وهذا القسم الأخير كان يجزأ إلى مجموعات موضوعية محددة» (٢) وتشير الأدلة إلى مكتبات العصور الوسطى المتأخرة التى اتبعت نفس النظام في ترتيب الكتب ولهذا يمكننا أن نقرر أن قوائم الجرد الكارولنجية تعتبر بمثابة قوائم رفوفshelf --lists ومن جهة أخرى ليس هناك ما يشير إلى وجود عادة وضع المخطوطات على أدراج وربطها بالسلاسل حتى لا تنقل من مكانها وهي العادة التى شاعت فيما بعد في العصورالوسطى المتأخرة وإن الاشارات إلى «الكتب المربوطة libri catenati» إنما تتعلق بالقرون المتأخرة من العصر الوسيط.

وإذا أردنا أن نتعرض باختصار للتنظيم الداخلي لمكتبات الأديرة في الفترة من القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر، فسوف نجد أن الفهارس التي وصلتنا تتباين تبايناً كبيراً فيما بينها من حيث التنوع والدقةواكتمال البيانات بها ولم يكن ترتيب الكتب يتبع نظاماً معينا بالذات وإن كان يسير في أغلب الأحيان على النظام المسلسل أما عن القول بأن العادة قد جرت في ذلك الوقت أو من قبل على وضع علامات على كل مجلد تبين موضع الكتاب على الرف فهو قول يحتاج إلى بحث وتمحيص وشواهد تؤيده وعلى العموم فإن مكتبة العصور الوسطى فيما بعد العصر الكارولنجي لم تحقق تقدماً أساسياً يعتد به، هذا التقدم الذي لم يتحقق في العصور الوسطى إلا بعد الجهود التي قام بها فلاسفة الكلام في الشؤون المكتبية.

---

(١) Hoc ut nullus opus cuiquam concesserit extra ni prius ille fidemdederit vel denique pig- nus Dones ad has aedes, quoe accepit, salvaremittat- Quoted by W.Wattenbach = Das Schriftwesen im mittelalter 3 rd, leipzig, 1896. p. 527.

(٢) Dorothy M. Norris = A History of Cataloguing and Cataloguing Methods, london, 1939.